شخصيّة امرأة العزيز (زليخا) في القرآن الكريم
دراسة سيميائيّة

د. لطيفة عبد الله الحمادي
تخصص لغة عربية وآدابها - أدب ونقد

د. سلور اشريتش
تخصص التفسير وعلوم القرآن القراءات
جامعة الوصل
i_selver@hotmail.com
00971524042889
bin_knean84@hotmail.com
00971502814414

ملخص:
يسعى هذا البحث إلى استكشاف شخصية امرأة العزيز (زليخا) ومدلولاتها في النص القرآني، وما مدى توظيفها في صناعة أحداث القصة، وذلك بالاستعانة بالمنهجين السيميائي والوصفي التحليلي، وبما آلت إليه أبعاد الشخصيات في الدراسات الحديثة، تحديدا نظرية (فيليب هامون)، الذي عدّ الشخصيات علامة لغوية، ووحدة دلالية، تحدد بالصفات والأقوال والأفعال، ودراستها بوصفها دالا ومدلولا، كونها علامات قادرة على توضيح قيمة الشخصية كعلامة سيميائية محورية في النص، في إطار التفسير المحمود وفق قواعد الدراسة. **الكلمات المفتاحية:** السيميائية، التحليلية، الشخصية، القرآن، زليخا، امرأة العزيز ، يوسف –عليه السلام، الدال والمدلول.

Abstract:
This research seeks to explore the character of the wife of al-'Azeez (Zuleikha) and its implications in the Qur’anic text, and the extent to which it is employed in making the events of the story, using the semiotic and descriptive-analytical approaches, and what the dimensions of the characters have come to in recent studies, specifically the theory of (Philip Hamon), who counts the characters as a linguistic sign, And a semantic unit, defined by attributes, sayings and actions, and studying them as a signifier and signified, as they are signs capable of clarifying the value of personality as a central semiotic sign in the text, in the light of the praiseworthy interpretation. **Keywords**: semiotics, analytics, personality, the Qur’an, Zulaikha, the wife of al-'Azeez, Yusuf - peace be upon him, the signifier and the signified.

مقدمة:

تحتل السيميائية مكانة متميزة في الدراسات النقدية المعاصرة؛ فهي قادرة على فتح آفاق بين النص والمتلقي، من خلال اعتمادها على فك رموز العلامات في النص وكيفية عملها. وقد اهتمت نظريات السرد الحديثة بدراسة مكونات النص، ومن أبرز هذه المكونات (الشخصية)؛ فهي تمثل العنصر الأساس في إنتاج الأحداث، والمسؤول الرئيس عن مختلف الأفعال التي تترابط في مجريات العمل الأدبي وتتكامل. لذلك تعددت الدراسات التي تناولت (الشخصية) تنظيرا وتطبيقا، وازداد اهتمام الباحثين بها منذ أن اتجه الشكلانيون الروس إلى دراسة النصوص السردية، بعد ما كان اهتمام رواد التجديد يكاد ينحصر في النصوص الشعريّة علما أن القرآن الكريم أسمى النصوص، وقد ذكر فيه الكثير من الشخصيات التي تمثل علامات لغوية مهمة، منها شخصية (زليخا/امرأة العزيز)، التي آثرنا دراستها في هذا البحث من منظور سيميائي؛ لكشف المعاني العميقة في شخصيتها، والدلالات الخفية، والزوايا الكامنة. وهذا يكفي أهمية للخوض في البحث الجاد. وقد تبنت الدراسة نظرية العالم والأديب الفرنسي "فيليب هامون" لتحليل الشخصيات؛ نظرا لقدرتها على الإحاطة بما يتعلق بتقديم الشخصية بمختلف أنواعها بشكل دقيق، بعيدا عن الغموض والالتباس الذي كان يلحق دراسة الشخصيات في التحليلات التقليدية مع مراعاة ضوابط التفسير المحمود وقواعد في تناول النص القرآني.

إشكالية البحث:

تناولت البحث شخصية (زليخا) من ناحية المدلول (الصفات، الأقوال، الأفعال)، ومن ناحية الدال (الاسم، الدور النحوي، الضمائر، الدلالة البلاغية)؛ وذلك للإجابة عن مجموعة من التساؤلات أهمها:

- ما الأبعاد السيميائية لشخصية (زليخا) في النص القرآني من حيث الدال؟
- كيف أسهمت الشخصية سيميائيا في تشكيل المعنى العام للنص؟
- هل يوجد انسجام أو تناسق بين اسم الشخصية (زليخا) وألقابها وأوصافها وبين أدوارها في القصة القرآنية من حيث المدلول؟
- هل دل النص القرآني على توبتها أم ندمها أو مجرد اعتراف في المشهد الأخير من ذكرها في سورة يوسف؟

منهجية البحث:

نظرا للتخصصين المختلفين للباحثين فقد اتبعنا منهجا وصفيا تحليليا للدراسة الموضوعية لقصة امرأة العزيز، ومنهجا سيميائيا في تناول الدال والمدلول وذلك للصلة الوثيقة بين الدراسات الإسلامية واللغة العربية من جهة، وضرورة ضبط الدراسات العربية بضوابط التفسير المحمود فيما يخص النص القرآني.

الدراسات السابقة:

هناك مجموعة دراسات تناولت سيميائية الشخصية –تحديدا في السرد– أما الأبحاث المتعلقة بدراسة سيميائية الشخصية في القرآن الكريم فهي قليلة، نذكر منها:

– السيميائية الأدبية لشخصية النساء في القرآن الكريم، زهرة حيدري (رسالة ماجستير)، جامعة بوعلي سينا، ١٣٩١هـ.
– سيميائية شخصية مريم –عليها السلام– في القرآن الكريم، علي طاهري وزهرة حيدري، مجلة لسان مبين، ع١٥، ١٣٩٣هـ.
– سيميائية شخصية يوسف –عليه السلام– القرآنية: قراءة بنيوية سيموطيقية، علي طاهري وآخرون، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، ع٢٤، ١٣٩٥هـ، ٢٠١٧م. ولم نقف على دراسة سيميائية لشخصية امرأة العزيز (زليخا) مع أنها كانت شخصية محورية في جزء مهم من قصة يوسف عليه السلام مما دفعنا إلى دراستها وتقديم بحث مستقل عنها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن النص القرآني – بوصفه نصا مقدسا– له خصوصية تختلف عن بقية النصوص البشرية، فلم يدرس البحث تصنيف الشخصيات التي ذكرها هامون في نظريته، بل اكتفى فقط بالدراسة من ناحية الدال والمدلول أو الدراسة التحليلية؛ حيث إن شخصيات القرآن حقيقية واقعية مستمدة من التاريخ البشري، وليست كقصص البشر، التي قد يعمد الكاتب إلى إحداث تناسق وتطابق بين أسماء الشخصيات وأدوارها في القصة.

التمهيد: سيميائية الشخصية عند فيليب هامون (تأطير تنظيري):

يعد الأديب الفرنسي فيليب هامون من أهم المنظرين في السيميائيات السردية، ولا سيّما في نظريته حول الشخصية، وقد استفاد في إرساء هذه النظرية من العديد من النقاد الذين سبقوه أمثال: بروب، سوريو، بريمون، غريماس... واستقى هامون مفاهيمه حول الشخصية من اللسانيات، وبالتالي كان يعرف الشخصية انطلاقا من العلامة اللسانية. وتطرق إلى مصطلح الشخصية بالدراسة والتنظير في مقال بعنوان: (من أجل قانون سيميولوجي للشخصية)[١]. ولكي يتم التعرف على الشخصيات دلاليا يقترح فيليب هامون مقياسين أساسيين:

الأول: المقياس الكمي: حيث ينظر إلى كمية المعلومات المعطاة حول الشخصية. والثاني: المقياس النوعي: وينظر في مصدر تلك المعلومات حول الشخصية، هل تقدمها الشخصية عن نفسها، أو عن طريق الشخصيات الأخرى أو المؤلف[٢]. كما يتم تقييم الشخصية من خلال دال لا متواصل، أي مجموعة متناثرة من الإشارات، فهامون يرى: "أن مختلف الدوال هي في العموم الأوصاف والنعوت وأسماء العلم والضمائر وغيرها من البدائل فالاسم الشخصي علامة لغوية بامتياز"[٣]. ويوحي الاسم بجزء من صفات الشخصية النفسية والجسدية، كما أنه يحدد الشخصية ويعرفها بهويتها وطريقة تكوينها، خصوصا أن ثمة روابط منطقية تربط الشخصية بالاسم الدال عليها[٤]، وهذا يعني أن ثمة دافعا وراء اختياره، فاختيار الأسماء "يحقق للنص مقروئيته وللشخصية احتماليتها ووجودها"٥. ويحدد هامون الشخصية بأنها مورفيم فارغ؛ أي علامة دلالية لا تحيل إلا على نفسها، فهي بحاجة "إلى بناء، تقوم بإنجازه الذات المستهلكة للنص، زمن فعل القراءة، هذا المورفيم الفارغ يظهر من خلال دال لا متواصل، ويحيل إلى مدلول لا متواصل"[٦]، أي أن الشخصية من وجهة نظره علامة جوفاء، تحيل على نفسها، ولا تكتمل سوى باكتمال النص. فضلا عن أن مفهوم الشخصية مرتبط بالوظيفة النحوية التي تقوم بها الشخصية داخل النص، أما الوظيفة الأدبية للشخصية "فتأتي حين يحتكم الناقد إلى المقاييس الثقافية والجمالية ومن هذه الناحية يلتقي مفهوم الشخصية بمفهوم العلامة اللغوية حيث ينظر إليها (كمورفيم) فارغ في الأصل، سيمتلئ تدريجيا بالدلالة كلما تقدمنا في قراءة النص"[٧].وفي مستويات الوصف تتم دراسة الشخصية وعلى فق مستويين:

الأول: بنية الممثلين؛ حيث يدرس المستوى السطحي عن طريق الصفات البارزة والخاصة التي تسفر عن استخراج وكشف المحاور الدلالية. أما الآخر: بنية العوامل؛ فيتم تحليل النموذج العاملي فيصنَّف الممثلون (الشخصيات) على أساس دورهم العاملي في النص[٨].

المبحث الأول: مدلول شخصية امرأة العزيز (زليخا):

نقوم في هذا المبحث بدراسة مدلول شخصية امرأة العزيز (زليخا) متمثلا في المطالب الآتية:

– صفات الشخصية.
– أقوال (زليخا).
– أفعال (زليخا).

المطلب الأول: صفات الشخصيّة:

ويقصد بصفات الشخصية: الصفة الواحدة، والصفة المكررة، والمنطقة الجغرافية، والأيدولوجيا، والقوة والثروة

- <u>الصفات المفردة والمكررة</u>: من صفات (زليخا) المذكورة في سورة يوسف: امرأة العزيز، الكيد العظيم، من الخاطئين، في ضلال مبين، النفس الأمارة بالسوء. ومعظم الصفات ذكرت لمرة واحدة إلا في صفتين، فقد تكررتا أكثر من مرة، وهما: (امرأة العزيز، الكيد) وسنعرض لأهم هذه الصفات في موضعها المناسب في البحث.

• المنطقة الجغرافية: بعد أن ألقى أخوة نبي الله يوسف –عليه السلام– أخاهم في بئر بأرض بيت المقدس، أخذ إلى مصر، وبيع في عاصمة الهكسوس[٩]،[١٠]، لبوتيفار عزيز مصر الذي أدخله إلى بلاطه وهو طفل، ولم يعامله معاملة العبيد، بل أوصى زوجته زليخا بالإحسان إليه، وذكر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ((وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)) (سورة يوسف، الآية: ٢١). وعليه يمكن القول: إن زليخا –امرأة عزيز مصر– مصرية.

• الأيدولوجيا: يذكر المؤرخ عزة دروزة في موسوعة تاريخ الجنس العربي، أن أحمد كمال باشا أحد أوائل علماء الآثار المصريين، قال في خبر يوسف –عليه السلام– إنه بيع لوزير الملك "ابابي رع كنن الهكسوسي"، وأن هذا الملك هو الذى أطلقه من السجن وعينه أمينًا على خزائن الأرض كما جاء في القرآن الكريم، مشيرًا إلى أن كل رجال الحكم آنذاك كانوا من الهكسوس، ومنهم العزيز الذى اشترى يوسف الذى كان أحد الوزراء[١١]، ومن ثمّ امرأة العزيز صاحبة قصة يوسف المشهورة في التوراة والقرآن أيضا.وإلى الشعب الهكسوسي الوثني كانت دعوة يوسف –عليه السلام– إلى التوحيد في مصر، ونجد في القرآن الكريم ذكرًا لبعض من تَوجَّهَ إليهم نبي الله يوسف بالدعوة، مثل صاحبيه في السجن: ((يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠))) (سورة يوسف، الآيتان: ٣٩–٤٠). وهذه الآية واضحة الدلالة في الدعوة إلى التوحيد وترك العبودية للأوثان.[١٢]

• القوة والثروة: إن زليخا –واسمها راعيل بنت رماييل– زوجة بوتيفار عزيز مصر –أي رئيس الوزراء–، والقائم على خزائن الدولة في عهد الملك أمنحوتب الثالث الذي يُعد من أعظم الملوك الذين حكموا مصر عبر التاريخ، والذي ذكر القرآن الكريم أن قومه كانوا يطلقون عليه لقب "رب" في أكثر من آية، ويوسف عليه السلام خاطبهم بأسلوبهم وما تعارفوا عليه واستخدم ذلك اللقب في مجال الدعوة وتعظيم الله تعالى رب يوسف – وليس هذا البحث مجالا لتفصيل ذلك. وهذه المرأة كانت من أكثر نساء الأرض جمالا وجاذبية، وكانت تعيش حياة ترف ونعيم، وتتحلى بقوة السلطان. فهي من حيث النسب ابنة ملك المغرب هيموس، وأمها أخت الملك ريان بن الوليد صاحب مصر، فقد عُرفت بكبريائها الذي تحول فيما بعد إلى تكبر وأنفة[١٣].

المطلب الثاني: أقوال (زليخا):

إن لـ (زليخا) في القرآن الكريم عدة أقوال تحتوي على أحداث متنوعة، منها: حكايتها مع يوسف –عليه السلام– في مشهد الغواية، ثم اتهامها له زورا أمام زوجها بأنه أراد بها سوءا، ومن بعد حديثها مع النسوة، وأخيرا اعترافها بالذنب.

١. دعوتها الصريحة ليوسف –عليه السلام– في بداية الفتنة: لقد أُشْرِبَتْ امرأة العزيز في قلبها حبّ يوسف –عليه السلام–، فسكن هواه في قلبها، وأصبحت تتحين الفرصة بين الفينة والأخرى؛ لتمكن نفسها من ذاته، فدبرت له مكيدة ماكرة ظنتها تبلغها المراد، حيث غلقت الأبواب وانفردت به ودعته إلى الفاحشة بصريح العبارة: ((وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ)) (سورة يوسف، الآية: ٢٣). اللفظ (هيت لك) فيه أربع قراءات متواترة: ١– قرأ نافع وأبو جعفر وابن ذكوان عن ابن عامر (هِيتَ لك). ٢–وقرأ ابن كثير (هَيْتُ لك). ٣–وقرأ هشام عن ابن عامر (هِئْتَ لك). ٤– وقرأ الباقون (هَيْتَ لك). وهي ألفاظ تدعى بها إلى الفاحشة، وتنوعها يؤكد حرصها على إغواء يوسف، وعظم رغبتها وإلحاحها الشديد.[١٤] لكن يوسف استحضر مراقبة الله واطلاعه، فرد عليها: ((مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)) (سورة يوسف، الآية: ٢٣). واللحظة التي دخل عليهما زوجها فجأة ادعت أن يوسف راودها عن نفسها، وظهرت لزوجها بمظهر العفيفة المظلومة، وطالبت العزيز بسجنه: ((وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) (سورة يوسف، الآية: ٢٥).

٢. كيد امرأة العزيز والفتنة الجديدة مع النسوة: إن المتأمل في سورة يوسف يلاحظ أن لفظ (الكيد) ومشتقاته تكرر تسع مرات، ست منها في سياق الحديث عن فتنة النساء، ولعل هذا يوضح مدى خطورة فتنة النساء، وهذا المعنى يؤكده حديث النبي –عليه الصلاة والسلام–: "ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء[15]". والمتأمل في قصة يوسف –عليه السلام– وما حدث له في بيت العزيز مع زوجته، يعلم أن السر في كيدها له هو الشهوة؛ أي "نزوع النفس إلى محبوب"[١٦]، الأمر الذي أدى بها إلى "التعبير عن حالها معه بالمراودة المقتضية لتكرار المحاولة، للإشعار بأنها كان منها الطلب المستمر، المصحوب بالإغراء والترفق والتحايل على ما تشتهيه منه بشتى الوسائل والحيل"[١٧].فبعد أن انتشر في أوساط الناس ما وقع ليوسف من فتنة، وأصبح الحديث عن عشق امرأة العزيز له على ألسنة كثير من النسوة:

((وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)) (سور يوسف، الآية: ٣٠)، لم يكن أمام (زليخا) إلا أن تبحث عن مخرج يخفّف من وطأة فضيحتها، فدبّرت مكيدة جديدة تضع بها حدا لانتقادها، لقد كانت تدرك أكثر من غيرها جمال يوسف وتأثيره على أولئك النسوة ولذلك: ((أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)) (سورة يوسف، الآية: ٣١)، فنجحت خطتها، فانبهرن بجماله، وقطعن أيديهن من الغرام والهيام به، فعذرنها. لكن يبدو أن النسوة لم ينتبهن إلى جمال آخر زاد من تعلق امرأة العزيز بيوسف، فالنسوة لم يرين من يوسف إلا جمال ظاهره، أما هي فقد رأت جمال باطنه، وصفاء سريرته، وعظيم عفته؛ ولذلك سارعت إلى إخبارهن بذلك فقالت: ((فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ)) (سورة يوسف، الآية: ٣٢). فلامتهن عن لومهن لها، وأخبرتهن أنه مع جماله الظاهر جميل الباطن، فقد استعصم وأبى الخيانة والفاحشة، وأن كمال جماله هذا، هو الذي يزيدها شغفا وحبا وتعلقا به، فلا تقوى على تركه.

٣. الاعتراف بالذنب، وانتصار العفة:بعد أن فسّر يوسف –عليه السلام– رؤيا الملك، وانبهر الأخير بعلمه، وقدرته على التأويل، بعث الملك إلى يوسف للمجيء إلى قصره، لكنه أبى الخروج من السجن إلا إذا نظر الملك في مسألة النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وما حدث مع امرأة العزيز، وهنا سوف تتجلى آثار العفة والطهارة، ويفتضح أمر اتباع الشهوة والهوى، فقد استدعى الملك امرأة العزيز ومعها النسوة، وحقق في الأمر معهن، ويوسف لا يزال في سجنه. فاعترفت امرأة العزيز على نفسها أمام الملأ، وشهدت ليوسف بالصدق والطهارة والاستقامة قالت: ((الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)) (سورة يوسف، الآية: ٥١). وبشكل عام جاء الجملة المحكية بالقول على لسان (زليخا) واضحة المعالم، دقيقة التراكيب، تدل على محاورة واضحة بين (زليخا) في مقابل يوسف –عليه السلام– والعزيز والنسوة والملك، فقد وردت جملة مقول القول للتوكيد والإصرار على الفعل، وأمر يوسف بالفاحشة، والتحذير من المخالفة، وتبرير دوافعها لارتكاب الرذيلة، وأخيرا الاعتراف بالذنب والتوبة. كما أن صيغة القول ومشتقاتها، تمنح النص مزايا، أهمها:

١. قيمة النص تكتسب مصداقيتها حين تعرف الجهة المنقول عنها، وذلك دليل على صدق النص القرآني وأمانته في نقل الأحداث على لسان الشخصيات ذاتها[١٨].

٢. إن المؤلف حين يصرح بمصادره يعلن عن براءة غير متحققة من مضمون النص، وهذا يعزز الفكرة السابقة (الصدق)، خاصت بأن (زليخا) سردت أقوال على لسانها تسجل فيها جميع اعترافاتها، ووسائلها لإغواء يوسف، وتأليب الصدور عليه، وفي الختام، أقرت بذنبها وخطيئتها، فقد عبرت بأقوال تتوافق تماما مع أفعالها وسلوكها في النص[١٩]، وهي بذلك أقامت الحجة على نفسها.

٣. إن أقوال (زليخا) تشير إلى دورها المركزي في القصة التي بنيت على الحوار القصصي، الذي يلعب فيه الفعل (قال) ومشتقاته دورا رئيسيا، يسهم في جذب المتلقي، وتشويقه لمتابعة النص باهتمام، فللقول "قيمة وفائدة وحاجة، فهو يعمل على حيازة اهتمام المتلقي، ويقدح ملكته الذهنية في التوقع والترقب واستشفاف النتائج من خلال المقدمات"[٢٠].

٤. كما أن الأقوال أعطت صورة عن الشخصيات ومنطلقاتها الفكرية والسلوكية؛ فمثلا الحوار بين يوسف –عليه السلام– و(زليخا) ينبئ عن أن هذه الشخصيات تنطلق من قواعد متباينة، فلا شك أن صداما يقع بينهما؛ لأن كل واحد منهما ينطلق من أرضية تختلف عن الآخر، وقلما يصلان إلى نقطة اتفاق، فما جرى بين يوسف وامرأة العزيز نموذج واضح على حوار مختلف في أساسه ونهاياته، فيوسف – عليه السلام– نبي يريد لمنهج الله تعالى أن يسود، ويطبق هذا المنهج أول ما يطبق على نفسه، أي أنه يعلي قيم الدين والعقل والروح على قيم الجسد، في مقابل امرأة العزيز التي تجعل قيم الجسد وإشباع الشهوات والرغبات هي المسيطرة، وتتراجع أمامها القيم الشريفة، وبالطبع فإن الحوار بينهما ينتهي الى طريق مسدود.

المطلب الثالث: أفعال (زليخا):

يحتل الفعل موقع الصدارة في القصّة، الأمر الذي يتناسب مع النزعة الشهوانيّة التي تقوم على الفعل لا على التفكير، فغلبت على القصّة الأفعال مثل: (وراودته، وغلقت الأبواب، وقالت، همت به، استبقا الباب، قدت قميصه، فصدقت، فكذبت، استغفري لذنبك، تراود فتاها، شغفها حبا، سمعت بمكرهن، أرسلت إليهن، اعتدت لهن، آتت، قالت اخرج عليهن، قالت ذلك الذي لمتنني فيه، راودته عن نفسه، لم يفعل ما آمره، ليسجنن، ليسجننه، أنا راودته، لم أخنه بالغيب). وأغلب الأفعال السابقة تقوم على الحركة كما تتحرك الشهوة في الجسد، فتبدأ من نقطة واحدة في الجسد، ثم تتحرك وتنتشر فيه بشكل كامل. وأكثر الأفعال تكرارا هو فعل (المراودة) الذي تكرر (٦) مرات من بداية القصّة

إلى نهايتها، مما يدل على كثرة أساليب الإغواء والمراودة التي تؤدي إلى الوقوع في الفاحشة، فتبدأ القصة في القرآن الكريم بين زليخا ويوسف بفعل مباشر صريح: ((وراودته)) (سورة يوسف، من الآية:٢٣)، و ((غلّقت الأبواب)) (سورة يوسف، من الآية:٢٣)، ثم ربطت الفعل بالقول ودعته فقالت: ((هيت لك)) (سورة يوسف، من الآية:٢٣)، لكن المفاجأة كانت في رد فعل يوسف –عليه السلام–: ((قال معاذ الله)) (سورة يوسف، من الآية:٢٣)، وهو رد امتناع كسر من كبرياء امرأة العزيز، لكنها سارعت لرد اعتبارها بفعل أكثر جرأة: ((همت به)) (سورة يوسف، من الآية:٢٤)، وسابقته إلى الباب لتمنعه من الخروج، ووصل بها الأمر أن ((قدت قميصه)) (سورة يوسف، من الآية:٢٤). نلاحظ أن هذه الأفعال جاءت بشكل متسلسل متنام مع سير الأحداث، مظهرة تدرج الفاحشة في قلبها تجاه يوسف –عليه السلام– وتزايدها. فامرأة العزيز أخفت في داخلها الكثير من ميلها واندفاعها نحو يوسف، دون مراعاة منزلتها العالية في المجتمع، وأقدمت على فعل يعد انفجارا لما تضخّم في نفسها من شهوة، وذلك شيءٌ يرفضه المجتمع الذي تعيش فيه، وتمثل ذلك في استنكار النسوة لما فعلت. وربط القرآن الكريم فعل (المراودة) بألفاظ علاماتية على محتويات الأشياء؛ مما له علاقة مباشرة بالنزعة؛ ليصورها بكل شفافية دون تصريح، فاستخدام الألفاظ: (قبل، ودبر، وقميص، ومتكئًا، وسكينًا، وقطّعن، وأيديهن)، فتتضافر الألفاظ السابقة في تحريك الأحداث؛ إذ تقبل امرأة العزيز، فيدبر يوسف عنها، ويقطع طريق الرغبة ومداخل الشيطان بالرفض، فهذه المفردات المنفردة لا يمكن لها أن تحقق هذا المعنى إلا بترابطها في علاقات دلالية تضم بعضها إلى بعض؛ لتحقيق مدلول خفي يظهر بترابطها. وورود أفعال شخصية (زليخا) بكثرة يتناسب مع هذه الشخصية التي تمثل مركز المخطط السردي، فهي من الشخصيات الفاعلة الرئيسية، وقد خرجت من إطارها المألوف إلى إطار جديد مفاجئ مما منحها قوة ونموا دراميا؛ إذ تتخذ في كل حدث من أحداث القصة موقفاً يسهم في تحريك الأحداث من حولها وكذلك الشخصيات، فهي أساس انطلاق الأحداث بمراودتها ليوسف –عليه السلام–، وهي التي غلقت الأبواب، ودعته إلى الفاحشة، فعلا وقولا، وهي من سابقته إلى الباب وقدت قميصه، ومن احتكم أولاً عند العزيز، ومن مكر وأعد لاجتماع النسوة، ومن كان سببا في دخول يوسف إلى السجن، وخروجه منه.

المبحث الثاني: دال شخصية امرأة العزيز (زليخا):

نقوم في هذا المبحث بدراسة دال شخصية امرأة العزيز (زليخا) متمثلا في المطالب الآتية:

- الآيات التي ورد فيها ذكر امرأة العزيز، والتي فيها الإشارة إليها بالضمائر (الدور النحوي).
- اسم (زليخا) ودلالته البلاغية.

المطلب الأول: الآيات التي ورد فيها ذكر امرأة العزيز، والتي فيها الإشارة إليها بالضمائر (الدور النحوي):

وردت قصة امرأة العزيز مع سيدنا يوسف–عليه السلام– في سورة يوسف فقط، وأشار القرآن الكريم إليها في أربعة مواضع، اثنان منها ورد ذكرها: "امرأة العزيز"، ومرة جاءت بلفظ "امرأته"، ومرة جاءت بلفظ "التي هو في بيتها"، والآيات التي ذكرت فيها هي:

- ((وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)) (سورة يوسف، الآية:٢١).
- ((وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)) (سورة يوسف، الآية:٢٣).
- ((وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) (سورة يوسف، الآية:٣٠).
- ((قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)) (سورة يوسف، الآية:٥١). الضمائر التي قامت مقام (زليخا) في الآيات القرآنية: بعد استقراء سورة يوسف وقصة يوسف –عليه السلام– مع امرأة العزيز وقفنا على الضمائر الآتية المشيرة إليها على النحو الآتي:

- ضمير مستتر تقديره (هي): وَرَاوَدَتْهُ، وَغَلَّقَتِ، وَقَالَتْ، هَمَّتْ، وَقَدَّتْ، قَالَتْ مَا جَزَاءُ، رَاوَدَتْنِي، فَصَدَقَتْ، فَكَذَبَتْ، تُرَاوِدُ، سَمِعَتْ، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ، وَأَعْتَدَتْ، وَآتَتْ، وَقَالَتِ اخْرُجْ، قَالَتْ فَذَلِكُنَّ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ.
- ضمير (هي) مبتدأ: قَالَ هِيَ،
- ضمير (أنا) مستتر: آمُرُهُ، لَمْ أَخُنْهُ، وَمَا أُبَرِّئُ،
- ضمير (أنا) مبتدأ: حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا،
- ضمير المتكلم (تُ): وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ، أَنَا رَاوَدْتُهُ.

- ضمير المخاطبة (تِ) : **كُنْتِ**،
- ضمير (ي) ياء التأنيث فاعل: **أَكْرِمِي، وَاسْتَغْفِرِي**،
- (ي) الياء اسم إن: **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي**،
- **ياء المتكلم المضاف إليه: نَفْسِي، إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي.**
- ضمير الغائبة (ها) مجرور: **وَهَمَّ بِهَا**،
- ضمير الغائبة (ها) مضاف إليه : **بَيْتِهَا، مِنْ أَهْلِهَا، فَتَاهَا، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا**،
- ضمير الغائبة (ها) مفعول به : **شَغَفَهَا، إِنَّا لَنَرَاهَا**،
- ضمير المخاطبة المجرور (كِ): **لِذَنْبِكِ**،
- ضمير المخاطبة المنصوب (كِ) اسم إن : **إِنَّكِ**،
- ضمير المخاطبات المنصوب (كنّ) مضاف إليه: **مِنْ كَيْدِكُنَّ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ**
- ضمير المتكلم المنصوب (نون) مفعول به: **لُمْتُنَّنِي**،
- وهي مشتركة في الضمائر الآتية مع غيرها: أَنْ يَنْفَعَنَا، أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا، وَاسْتَبَقَا الْبَابَ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا، مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ، أَصْبُ إِلَيْهِنَّ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ. إن امرأة العزيز (زليخا) وردت في أربعة مواضع في القرآن الكريم، دون تصريح مباشر باسمها؛ ففي موضعين ذكرت بـ: (امرأة العزيز)، وفي موضع آخر: (امرأة)، ومرة جاءت بلفظ (التي هو في بيتها). وقد يتساءل البعض لماذا أشير إليها بلفظ (امرأة العزيز) دون (زوجة العزيز)؟ وعند استقراء الآيات القرآنية التي جاء فيها اللفظان، نلحظ أن لفظ (زوجة) يُطلق على المرأة إذا كانت الزوجية تامّة بينها وبين زوجها، وكان التوافق والاقتران والانسجام تاما بينهما، دون وجود اختلاف ديني أو نفسي أو جنسي... وفي حال لم يكن التوافق والانسجام كاملاً، ولم تكن الزوجية متحقّقة بينهما، وكانا على غير دين الحق فإن القرآن يطلق عليها (امرأة) وليست زوجاً. ونجد في كتاب الله إطلاق هذا اللفظ عند الاختلاف الديني العقدي بينهما مثل: امرأة نوح وامرأة لوط، وامرأة فرعون، أو كان التوافق بينهما ولكنهما على غير دين الحق مثل: امرأة أبي لهب. إذن فلفظة (امرأة) في النص القرآني لها دلالات "فهي رمز لعدم المودة والخلاف في العقدية والخيانة والعقم"[٢١]، وبالنظر إلى القصة نلاحظ أن العلاقة بين (زليخا) و(بوتيفار) قد تكون مضطربة، أو خالية من المشاعر، ولعل السبب أنهما لم يرزقا بالأولاد، ويؤيد هذا التفسير إقدامها على إغواء يوسف –عليه السلام– بكل وسيلة، أو لأنهما على غير دين الله تعالى. ثم أن إضافة لفظة (امرأة) إلى (العزيز) يزيل اللبس عن الشخصية المعنية، إذ لا ريب أن هناك الكثير من النساء ممن تسمين باسم العلم (زليخا)، أما التعريف بالإضافة لا يتسع سوى لمرجع واحد هو (زليخا امرأة عزيز مصر بوتيفار). وجدير بالإشارة هنا إلى أن النسوة اللواتي لُمنَ (زليخا) هن أيضا لم يذكرن اسمَها صراحة، بل قلن: (امرأة العزيز تراود فتاها) ولم يسمينها باسمها، بل ذَكَرْنَها بالوصف الذي ينادى عليها بقبيح فعلها كونها ذات بعل، فصدور الفاحشة من ذات الزوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها، وهي وزوجها أصحاب مكانة عالية في ذلك الوقت، ثم الذي تراوده مملوك في بيتهما لا حر، فكل هذه الأمور أدت إلى استقباحهن لفعلها غاية الاستقباح. وجاءت اسما موصولا في قوله تعالى: (التي هو في بيتها)، وهو كناية عن (امرأة العزيز) أو (زليخا)، ويفسر الخطيب القزويني وجه الفائدة في إيراد الاسم الموصول بدلا عن اسم العلم بقوله: "إنه مسوق لتنزيه يوسف عليه السلام عن الفحشاء، والمذكور أدل عليه من امرأة العزيز وغيره"[٢٢]، "والحاصل أن الغرض المسوق له الكلام يدل عليه كل من الموصول واسم الجنس الذي هو امرأة العزيز والعلم الذي هو زليخا إلا أن الموصول يدل على ذلك أكثر من غيره؛ لأنه يقتضي أنه تمكن منها ولم يفعل بخلاف غيره، فإنه لا يدل على التمكن"[٢٣]، كما أن جملة الصلة (هو في بيتها) تقوي دلالة التنزيه لنبي الله يوسف، فقد وصل إلى شدة التعفف مع شدة سهولة المواتاة، فقد نشأ وأقام في بيت المرأة التي كانت من أكثر النساء جمالا ونفوذا في المجتمع ذلك الوقت، وكانت الظروف مواتية له لارتكاب السوء والفاحشة، لكن يوسف –عليه السلام– امتنع تعففا وعصمة من الله تعالى. وبشكل عام فإنه من الأدب القرآني أن تصان المرأة عن التصريح باسمها عَلَما في مواضع معينة؛ لما في ذلك من كشف سرها، فلم يأت ذكر اسم (زليخا) في القرآن صراحة، إنما جاء تلميحا: (امرأة، امرأة العزيز، التي هو في بيتها)، ولعل الحكمة تكون في الانصراف عن الاسم الدال الصريح؛ لأجل الستر، وعدم فضح الأعراض، وصيانتها، ولا سيّما لعلم الله تعالى فيما سيكون من اعتراف (زليخا) وندمها، فلا يصلح أن يكون اسمها علماً على ما اقترفت، فاكتفى بالتلميح دون التصريح. هذا من وجهة نظر واحدة، ومن وجهة نظر أخرى فإنها بأوصافها صارت مفضوحة أكثر مما لو ذكرت بمجرد اسمها، وتتحقق

بذلك العبرة الأقوى والتأثير الأكبر. وإن الهدف العام من القصة ليس الاسم ولا التشهير بصاحب القصة، بل الأهم هو تبعات العمل والإجراءات الطارئة عليه، وتبرئة يوسف مما التُصق به من تهم زائفة. نلاحظ فيما سبق أن الضمير (هي) جاء فاعلا مستترا مرات عديدة، فصار أكثر الضمائر تكرارا، ويعد دور الفاعل المستتر بشكل عام أكثر الأدوار ذكرا، مما يدل على أن لشخصية (زليخا) دورا أساسيا في بناء أحداث القصة، وكذلك هي من الشخصيات المؤثرة فيها، وقد يتناسب هذا الدور الكبير للفاعل المستتر مع ما قامت به (زليخا) من أفعال حاولت بها أن توقع يوسف –عليه السلام– في الغواية، لكنها أيضا كانت تحرص على الاستتار عن أنظار الناس، وألسنتهم؛ خشية من فضح أمرها، وانكشافها، خاصة وأنها ذات مكانة اجتماعية رفيعة آنذاك. وعندما يشار إليها بالضمير فكأنه يقول: هذه هي معروفة ليست غيرها، ولا يحتمل الضمير غيرها بل يقصدها عينها.

المطلب الثاني: اسم (زليخا) ودلالته البلاغية:

اسم علم مؤنث، يرى البعض أنه اسم عربي منقول من "الزَّلْخ": وهو " رَفْعُك يدك في رمي السهم إلى أَقصى ما تَقدر عليه تريد بُعْدَ الغَلْوَةِ... والزَّلْخُ أَقْصى غايةِ المُغالي... وزَلِخَتِ الإِبلُ... سمنت... وناقة زَلُوخٌ سريعة.... والزلخ المزلة، بسكون اللام وكسرها كما في القاموس، تَزِلُّ منها الأَقْدام لنَداوتِها..."[٢٤]. وهناك من يرى أنه اسم قبطي، انتشر عند المصريين القدماء، واشتهرت به امرأة عزيز مصر[٢٥]. والاسم مقصور (بلا همزة متطرفة)، وبعضهم يراه ممدوداً (في آخره همزة). وقد يُستبعد وجود علاقة بين هذه المعاني واسم (زليخا) في بداية الأمر، لكن من الممكن أن نوضّح علاقة المعاني ودور الشخصية ببعض احتمالات، منها: أن امرأة العزيز (زليخا) بذلت أقصى ما تستطيع من أجل وصولها إلى هدفها، وهو غواية يوسف –عليه السلام–، معولة على جمالها وسلطتها ومكانتها الاجتماعية، وغالت في تعلقها به، وحبها له، الأمر الذي أوقعها في الزلل والانزلاق في مهاوي الفاحشة والسوء، وهذا بلا شك حال كل امرأة اغترت بجمالها وحسبته حاسما في العلاقات والحياة، وزاد غرورها مالها ومكانتها الاجتماعية وهي الصفات نفسها ذكرها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في حديث: عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك.٢٦ ونستطيع أن نستشف البعد البلاغي لشخصية (زليخا) من خلال أقوالها وأفعالها في النص القرآني؛ فهي اتصفت بالخيانة والمكر والخداع واتهام الآخرين زورا وبهتانا، كما بدت امرأة عاشقة تملّكتها عواطفها ونزواتها، فتنازلت عن مكانتها وحطّمت الفارق بين مقامها وبين يوسف، وبدت امرأة ذات عزيمة على ارتكاب الفاحشة والخيانة. أمّا من الناحية الفكريّة فإنّ ما فعلته أمام زوجها يوحي بذكائها وسرعة بديهتها، فقد تصرفت بشكل طبيعي أمام زوجها؛ لإبعاد الشكّ عن نفسها، وطلبت منه عقابا ليوسف؛ بسبب إساءته حسبما زعمت، فإمّا السجن وإما العذاب الأليم. فشخصيّة (امرأة العزيز) تحوّلت إلى امرأة شرهة عاطفيّاً، تريد تحقيق نزواتها مهما كانت الوسيلة التي ستوصلها لغايتها.

وبعد دراسة دال شخصية امرأة العزيز (زليخا) ومدلولها نستحضر سؤالا مهما: هل دلت الآيات على توبة زليخا؟

بعد تتبع كتب التفسير المختلفة قديما وحديثا نلاحظ اختلافا فيما يتعلق بتوبة زليخا، وتفسير الآيات التي تنقل لنا المشهد الأخير لذكرها في القصة والمشهد أمام الملك الذي كانوا يطلقون عليه لقب الرب كما أسلفنا. معظم المفسرين يميلون إلى تفسير الآيات بتوبة زليخا، ومنهم من ذهب أبعد من ذلك بحيث يروون أقاويل بأن يوسف تزوجها بعد أن رجع الله لها شبابها. وعند إنعام النظر في الآيات ((**قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)**)) (سورة يوسف ٥١–٥٣) ، نلاحظ ما يلي:

– عدم وجود يوسف في المشهد يشير بأن المجتمع آن ذاك مجتمع عنصري ويعتبرون يوسف ليس منهم ولا يرون ضرورة حضوره في أمر يخصه.

– امرأة العزيز اعترفت بأمر واحد وهو مراودة يوسف عن نفسها؛ لأن التهمة الموجهة إلى النسوة أمام الملك كانت تتعلق بهذا المحور دون غيره، ولما تبرأت النساء من التهمة بشكل جماعي لم يبق أمام امرأة العزيز إلا الاعتراف؛ لأن المعارضة في ذلك المشهد لم تكم له وجهة منطقية، ولم تكن في صالحها.

– العزيز نفسه أيضا غائب عن المشهد وهو الذي أدخله السجن سابقا، إذ الملك يجهل كل ما صار حتى ذلك الموقف. ولما سأل يوسف تعيينه على خزائن الأرض يتبين جليا أن وظيفة العزيز كانت شاغرة بوفاته.

– الاعتراف لا يعد توبة إطلاقا حتى لو كان مصحوبا بالندم، كما نعرف ذلك عن قاتل أخيه من قصة ابني آدم عليه السلام في سورة المائدة.

– امرأة العزيز لعبت دور محام محترف، ودافعت عن نفسها بأسلوب محاماة راق تجعل الملك وحاشيته ومن حوله وحتى المفسرين إلى يومنا هذا يعتقدون بأنا تابت. نحسبها لم تتب بما يلي:

١- إنها ظلمت يوسف وتعتذر أمام الملك، فهذا لو ضربت زيدا ثم ذهبت إلى عمرو فقلت له لقد ضربت زيدا. ما علاقة اعترافك أمام عمرو لضربك زيدا.

٢- سورة يوسف تذكر موقفين لبيان توبة أصحابها، أولهما توبة إخوة يوسف بقولهم: ((قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢))) (سورة يوسف ٩١-٩٢) اعترافهم بالخطأ وقبولهم حكمه عليهم، وثايهما اعتراف أبناء يعقوب بنبهم أما أبيهم في قوله ((قَالُوا يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨))) (سورة يوسف: ٩٧-٩٨) والاعتراف بالذنب واضح وطلب العفو بين، ولكن كل ذلك غائب عن امرأة العزيز في حق يوسف –عليه السلام–.

٣- اعترفت بمراودة يوسف لما أسقط في يدها، ولكن لها مخرج، وحتى ذلك في أسلوب قرآني غير مقبول التوبة فيه؛ فقد أشار الله تعالى على مثل تلك "التوبة" في قوله: ((إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨))) (سورة النساء: ١٧-١٨)، والآيتان واضحتان في الدلالة على أن التوبة عن قريب مقبولة، وأما التوبة خوفا من الموت أو العقوبة بعد عمل السيئات –مثلها– ولم تكن التوبة عن قريب فهي أبعد أن تقبل أو تسمى توبة.

٤- إن امرأة العزيز تحمل مسؤولية الذنب على النفس الأمارة بالسوء وكأنها تقول: لا ذنب لجسدي هذا بل المسؤولة عن كل تصرفاتي نفسي، فكلكم له نفس وتعرفون ما تجول فيها من أفكار، وإن شئتم معاقبتها فلكم ذلك؟ ولكن كيف لهم بذلك؟ وتشير ضمنا بأنه لو ظهر منها شيء غير ذلك من الماضي أو المستقبل فلوموا نفسها الأمارة بالسوء وبرئوها.

٥- وهنا تبرز شخصيتها حيث طورت أسلوبها في إغواء يوسف عن بعد إذ قدمت نفسها معترفة بالذنب قابلة لحقائق لا غبار عليها مثل: **(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) (سورة يوسف: ٥٢)، (إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة يوسف: ٥٣)**، وتتدرج منها تحت: كلمة حق يراد بها الباطل. هنا تريد إظهار نفسها ليوسف وقومها أنها إنسانة منكسرة مؤمنة تائبة، والحقيقة أنها بقيت وحيدة بعد وفاة زوجها وانكشاف أمرها، وبقيت لها فرصة أخيرة هي أن تدخل على يوسف الكريم العفيف الشريف من باب الدين والتدين، فهذا أسلوب ماكر.

خـاتمة:

قام هذا البحث بدراسة شخصيّة (زليخا) سيميائيّا بوصفها امرأة ذات مكانة اجتماعية رفيعة في مصر، وتحظى بالجمال والمال والقوة والثروة، وتوصلنا إلى النتائج الآتية:

١. تناول البحث مدلول شخصية (زليخا) من ناحية صفاتها وأقوالها وأفعالها، فمن ناحية الصفات وجدنا أنها رغم ما تتمتع به من صفات الجمال والمكانة الاجتماعية والقوة والثروة، إلا أنها استغلت هذه الصفات بشكل سلبي؛ لتحقيق أهداف غير أخلاقية (غواية يوسف –عليه السلام–)، مما أبان عن جانب غير سوي في شخصيتها، وكشف عن كيدها العظيم.

٢. أفعال (زليخا) في النص تشير إلى دورها المركزي في القصّة، وإسهامها في تحريك الأحداث بقوة.

٣. أقوال (زليخا) كانت داعمة لأفعالها، مصدقة عليها، وكشفت الأقوال عن المنطلقات الفكرية للشخصية، والتي أثرت عليها، وحركت سلوكها.

٤. تناول البحث اسم (زليخا) والضمائر التي حلت محله ودوره النحوي والبلاغي، وتبين الآتي:

أ. بالبحث في معاني اسم (زليخا) وجدنا أن الاسم في كثير من معانيه يطابق الدور القصصي.

ب. يعد ضمير الفاعل المستتر (هي) أكثر الضمائر ذكرا، ودور الفاعل يتصدر بقية الأدوار النحوية، مما يدل على الأثر القوي لشخصية (زليخا) في تحريك أحداث القصة.

ج. البعد البلاغي لاسم (زليخا)/ (امرأة العزيز) يوحي للمتلقي بسيطرة العاطفة والرغبات الجامحة على العقل، والسعي بعزيمة لتحقيق النزوات، مهما كانت الوسائل، التي قد توقع صاحبها في الرذيلة والفاحشة.

د. صونا للمرأة، وتحقيقا للستر، وحفاظا على الأعراض، عدل النص القرآني عن التصريح باسم العلم (زليخا)، وأشار إليها تلميحا بـ (امرأة، امرأة العزيز، التي هو في بيتها)، فلم يكن ذكر الاسم صراحة هو الهدف الأساسي، بل عمل الشخصية وتبعات سلوكها.

٥. استخدمت امرأة العزيز كل طرقها لإغواء يوسف –عليه السلام– من جمال وجاه ومال وباستمرار لافت، ولم تستسلم حتى أمام الملك، وحاولت إظهار نفسها تائبة منكسرة؛ لعل ذلك يوصلها إلى هدفها.

٦. لم تتب امرأة العزيز توبة يقبلها الله تعالى، ابتداء؛ لأنها كانت على غير دين التوحيد، وثانيا؛ تبرأت نفسها من الفعل الذي اعترفت به أمام الجميع، إذ لم يكن أمامها خيار آخر، وألقت اللوم على النفس الأمارة بالسوء، وهذه حيلة محامية دقيقة في دين ملكها.

توصيات:

– نوصي زملاءنا الباحثين في المجالين اللغوي والتفسيري بالبحث الموسع حول الشخصيات المذكورة في سورة يوسف؛ كونها قصة واقعية وتتضمن عددا كبيرا من الشخصيات المختلفة في الجنس والدين والمكانة والميول.

– ونوصي بدراسة شهادات واردة في سورة يوسف من قبل متخصصين في المحاماة؛ ليبين لنا ما في هذه السورة من أسس ومبادئ؛ إذ نشهد أنواعا من الخصومات والشهادات والدفاعات.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. البخاري، محمد بن إسماعيل– صحيح البخاري– تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: اليمامة– ط٣ –١٤٠٧هـ.

٢. البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (٥١٠ هـ)– معالم التنزيل في تفسير القرآن– تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة الضميرية، سليمان مسلم الحرشن– دار الطيبة للنشر والتوزيع– ط٤– ١٤١٧هـ.

٣. جميل حمداوي– مستجدات النقد الروائي– ط١– ٢٠١١م.

٤. حسن بحراوي– بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)– ط٢– المركز الثقافي العربي، بيروت– ٢٠٠٩م.

٥. الخطيب القزويني– الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، مختصر تلخيص المفتاح– اعتنى به وراجعه: عماد بسيوني زغلول– ط١– شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان.

٦. ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة (المتوفى: حوالي ٤٠٣هـ)– تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة.

٧. شوقي أبو خليل– أطلس القرآن (أماكن، أقوام، أعلام)– ط١– دار الفكر المعاصر، لبنان، دار الفكر، سوريا– ٢٠٠٣م.

٨. صابر عبيد وسوسن البياتي– جماليات التشكيل الروائي– ط١– دار الحوار للطباعة والنشر، اللاذقية، سوريا– ٢٠٠٨م.

٩. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)– – ط٣– دار المعارف– ٢٠٠٤م.

١٠. عماد الهلالي– معجم أعلام النساء في القرآن الكريم، – ط١– دار الكتب العلمية، لبنان– ٢٠١٠م.

١١. فيليب هامون– سيمولوجية الشخصيات الروائية– ترجمة: سعيد بنكراد– ط١– اللاذقية– ٢٠١٣م.

١٢. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت:٧٧٤هـ)– ، ط٢– ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.

١٣. لطيفة الحمادي– المقالة في أدب أحمد حسن الزيات، دراسة في المقومات الفكرية والبناء الفني– ٢٠١٤/٢٠١٥م.

١٤. محمد سيد طنطاوي– التفسير الوسيط للقرآن الكريم–ط١– دار نهضة،مصر– ١٩٩٧م.

١٥. محمد عبد الرؤوف المناوي– التوقيف على مهمات التعاريف– تحقيق: محمد رضوان الداية– ط١– ٢٠٠٢م.

١٦. محمد عزة دروز– تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار– ج٢– بيروت– ١٣٧٩هـ– ١٩٥٩م.

١٧. ناهضة ستار– بنية السرد في القصص الصوفي (المكونات والوظائف والتقنيات)– اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

١٨. ابن منظور– لسان العرب– دار المعارف، القاهرة– د.ت.

١٩. المواقع الإلكترونية: قاموس معاني الأسماء، www.almaany.com.

هوامش البحث

[١] – فيليب هامون– سيمولوجية الشخصيات الروائية– ترجمة: سعيد بنكراد– ط١– اللاذقية– ٢٠١٣م– ص١٥.

[٢] – المرجع نفسه– ص٥٥.

[٣] – المرجع نفسه– ص١٥، ١٧.

[٤] – صابر عبيد وسوسن البياتي– جماليات التشكيل الروائي– ط١– دار الحوار للطباعة والنشر، اللاذقية، سوريا– ٢٠٠٨م– ص١٧٢.

[٥] – حسن بحراوي– بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)– ط٢– المركز الثقافي العربي، بيروت– ٢٠٠٩م– ص٢٤٧.

[٦] – فيليب هامون– سيمولوجية الشخصيات الروائية– ترجمة: سعيد بنكراد، ص١٥.

[٧] – جميل حمداوي– مستجدات النقد الروائي– ط١– ٢٠١١م– ص٢٢٢.

[٨] – المرجع نفسه– ص١٠، ١١.

[٩] – شوقي أبو خليل– أطلس القرآن (أماكن، أقوام، أعلام)– ط١– دار الفكر المعاصر، لبنان، دار الفكر، سوريا– ٢٠٠٣م– ص٦٧.

[١٠] – العصر الذي كان فيه يوسف هي الفترة التي حكم به ملوك الرعاة المعروفون تاريخياً بالهكسوس، هؤلاء حكموا مصر في فترةٍ معينةٍ أخذوا الحكم من الفراعنة ثم عاد الفراعنة واستردوا الحكم في مصر فكان اسمهم الملوك وليس الفراعنة، مصر فيها فراعنة لكن في عصر الهكسوس الذي كان فيه يوسف –عليه السلام– في مصر كان يوجد ملوك.

[١١] – محمد عزة دروز– تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار– ج٢– المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت– ١٣٧٩هـ– ١٩٥٩م– ص١٣٤ وما بعدها.

[١٢] ينظر:البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (٥١٠ هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة الضميرية، سليمان مسلم الحرشن دار الطيبة للنشر والتوزيع/ ط٤، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، ٤/ ٢٤٢–٢٤٣، وابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت:٧٧٤هـ)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار الطيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م، ٤/ ٣٨٩–٣٩٠.

[١٣] – عماد الهلالي– معجم أعلام النساء في القرآن الكريم، دراسة موضوعية لشخصية المرأة في القرآن الكريم– ط١– دار الكتب العلمية، لبنان– ٢٠١٠م– ص١٤٥، ١٤٦.

[١٤] **ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة (المتوفى: حوالي ٤٠٣هـ)، تحقيق: سعيد الأفغاني،ص: ٣٥٧.**

[15] – البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: اليمامة، ط٣ ،١٤٠٧هـ، كتاب النكاح، باب ما يتقى به من شؤم المرأة، حديث (٤٨٠٨) ، (٥/١٩٥٩).

[١٦] – محمد عبد الرؤوف المناوي– التوقيف على مهمات التعاريف– تحقيق: محمد رضوان الداية– ط١– دار الفكر، بيروت (٤٤٠/١).

[١٧] – محمد سيد طنطاوي– التفسير الوسيط للقرآن الكريم–ط١– دار نهضة،مصر– ١٩٩٧م–ص٢٢٩١.

[١٨] – ناهضة ستار– بنية السرد في القصص الصوفي (المكونات والوظائف والتقنيات)– اتحاد الكتاب العرب، دمشق– ٢٠٣م– ص٩٢.

[١٩] – المرجع نفسه– ص٩٢.

[٢٠] – لطيفة الحمادي– المقالة في أدب أحمد حسن الزيات، دراسة في المقومات الفكرية والبناء الفني (رسالة دكتوراه)– كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي– ٢٠١٤/٢٠١٥م– ص٢٦٩.

[٢١] – الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية– د.عائشة عبد الرحمن– ط٣– دار المعارف– ٢٠٠٤م– ص٢٢٩، ٢٣٠.

[٢٢] – الخطيب القزويني– الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، مختصر تلخيص المفتاح– اعتنى به وراجعه: عماد بسيوني زغلول– ط١– شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان– ٢٠٠٥م– ص٣٠.

[٢٣] – الخطيب القزويني– الإيضاح في علوم البلاغة، ص٣٠.

[٢٤] – ينظر: ابن منظور– لسان العرب– مادة (ز ل خ)– دار المعارف، القاهرة– د.ت– ص١٨٥١.

[٢٥] – قاموس معاني الأسماء، www.almaany.com، معنى اسم زليخا.

[٢٦] متفق عليه. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار الطوق، ط١، ١٤٢٢هـ، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ح٥٠٩٠، ٧/ ٧, ومسلم، صحيح مسلم، ح٢٦٦١، ٧/ ٣٨٨.